الباب الثالث

الإسلام والجهاد فى نشره

بداية الإسلام :

ظهر الإسلام أول ما ظهر بمكة المكرمة ، حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إليه بأمر ربه : (يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * والرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) ، والمدثر أى المغطى بالغطاء ، والرجز هى الأوثان ، ودليله (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) وكان قومه يعبدونها من دون الله ، وكان هو يعاف بفطرته الطاهرة عبادتها ، ويخلو بربه كل عام فى غار حراء بعيدًا عن مجتمعهم ، حتى أكرمه الله برسالته للناس كافة ، عربهم وعجمهم ، فكانت أعظم الرسالات وأشملها ، كما كانت خاتمة الشرائع السماوية .

معنى الشهادتين :

وأساس الإسلام كما بينا آنفًا الشهادتان : «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» فينطق بهما لسان المسلم ويعتقدهما قلبه ، فيقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ومعنى « أشهد » أى أتحقق وأجزم ، « ولا إله إلا الله » معناها لا معبود بحق إلا الله ، فالسلطان المطلق والسيادة كلها له وحده سبحانه ، ووحدانيته تقتضى ألا يكون له شريك ولا صاحبة ولا ولد ، ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير ، فمن عبد غيره فقد كفر ، ومن أشرك معه أحداً فقد ضل عن سواء السبيل ، ومن هنا نقول فى الفاتحة : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) أى نخضع ونذل ونعترف بالعبودية لك وحدك ، والشهادة بأن محمدًا – صلى الله عليه وسلم – رسول الله معناها إقرار

بـأنه مرسل من ربه ، يبلغ الناس شرع الله ، فأوامره هى أوامر الله ، ونواهيه هى نواهى الله ، كما قال تعالى فى سورة النجم : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحى) ، والإقرار برسالته صلى الله عليه وسلم يقتضى طاعته فى تلك الأوامر والنواهى ، لأن طاعته هى طاعة الله الذى أرسله كما قال تعالى فى سورة النساء : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) .

التكبير :

وقد كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه كما أمره الله ، فكان انعقاد الصلاة بالتكبير فى قوله : « الله أكبر » ، ومعناها كما بينه السبط الكريم الإمام الحسين بن علىّ ، حين قال له ابن الأزرق : يا حسين ، صف لى إلهك الذى تعبد ، وكان ابن الأزرق على رأس الخوارج الأزارقة فأجابه الإمام الحسين رضى الله عنه : «يابن الأزرق أصف إلهى بما وصف به نفسه ، أكبر من أن يقاس بالناس ، أو يدخل تحت القياس ، أو يدرك بالحواس ، قريب غير ملتصق ؛ بعيد غير مستقصى ، لا إله إلا هو الكبير المتعال » . فقال ابن الأزرق فى إعجابه بوصفه : قد نبأ الله عنكم أنكم قوم خصمون .

الأسوة الحسنة :

وتقتضى طاعته صلى الله عليه وسلم الإيمان بكل ما جاء به والتأسى به فى أقواله وأفعاله وأحواله كما قال تعالى فى سورة الأحزاب : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً) ، فهو فى أقواله وأفعاله وأحواله السراج المنير للسالك على الصراط المستقيم ، فمن استنار به كان من أهل الهدى ، ومن خالفه ضل وغوى ، قال تعالى فى سورة الأحزاب : (يـأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا ۝ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِـأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلا كَبِيرًا ۝ وَلَا تُطعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً) ، والدعوة إلى الله هى الدعوة إلى توحيده سبحانه ،

ومكافحة الذين يصدون عن سبيله ، والسراج المنير استعارة للنور الذى يتضمنه شرعه تعالى ، وقيل سراجاً أى : هادياً من ظلمات الضلالة ، فأنت كالمصباح المضيء ، ووصفه بالإنارة لأن من السرج مالا يضيء ، وقيل معناها أنت ذو سراج منير أى كتاب نيّر ، وجاز أن يكون وتالياً كتاب الله . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا ومعاذاً ، فبعثهما إلى اليمن وقال : «اذهبا فبشّرا ولا تنفّرا ، ويسّرا ولا تعسّرا ، فإنه قد أنزل علىّ (يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ . . .).

الفضل الكبير :

وفى قوله تعالى : (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا) ، يقول ابن عطية – كما جاء فى تفسير القرطبى – قال لنا أبىّ رضى الله عنه : هذه أرْجَى آية عندى فى كتاب الله تعالى ، لأن الله تعالى قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين أن لهم عنده فضلا كبيرًا ، وقد بيّن الله الفضل الكبير فى قوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءون عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ) [1] ، ويقول الإمام القرطبى رضى الله عنه : فالآية فى سورة الأحزاب خبر ، والتى فى سورة الشورى تفسير لها .

إنذار العشيرة :

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيرته الأقربين للإسلام فى بداية الدعوة تنفيذًا لقوله تعالى فى سورة الشعراء : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) ، وقد روى مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فاجتمعوا فَعَمَّ وخَصَّ فقال :

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٢ .

« يا بنى كعب بن لؤى ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ؛ يابنى مُرّة بن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد شمس ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد مناف ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى هاشم ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ؛ يا بنى عبد المطلب ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة ؛ أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئًا ، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها (أى أصلكم صلة الرحم فى الدنيا . ولا أغنى عنكم من الله شيئًا فى الآخرة إن بقيتم على الكفر) ، وبذلك لم يدع صلى الله عليه وسلم حجة لغير أهله فى التخلف عن إجابة الدعوة التى دعا إليها .

ويقول الإمام القرطبى رضى الله عنه : فى هذا الحديث والآية دليل على أن القرب فى الأنساب لا ينفع مع البعد فى الأسباب ، ودليل على جواز صلة المؤمن بالكافر ، وإرشاده ونصيحته لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن لكم رحمًا سأبلها ببلالها» . وقوله عز وجل فى سورة الممتحنة : (لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) .

وها أنت ذا تراه صلى الله عليه وسلم قد دعاهم إلى الإيمان بالحكمة والموعظة الحسنة . فنفذ فى دعوته أمر ربه فى سورة الأنعام : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) ، وقد نزلت تلك الآية الكريمة بمكة . فتلطف صلى الله عليه وسلم فى دعوتهم ولم يخاشنهم . وقال العلماء إنها محكمة فى جهة العصاة من المؤمنين ، ومنسوخة بالقتال فى حق الكافرين.

تطور الدعوة إلى الإسلام :

ويقول ابن إسحق فى تطوّر الدعوة إلى الله كما جاء فى سيرة ابن هشام :

مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله . على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى .

وآمنت به خديجة بنت خُوَيْلد – رضى الله عنها – وصدّقت بما جاءه من الله ، وآزرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدّق بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، لا يسمع شيئًا مما يكرهه من رد عليه ، وتكذيب له ، فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبته وتخفف عليه ، وتصدّقه وتهوّن عليه أمر الناس ، رحمها الله تعالى .

ثم فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة ، حتى شق ذلك عليه وأحزنه ، فجاءه جبريل بسورة الضحا : (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَا * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) : فبشره بأنه ما جفاه منذ أحبه ، ووعده بأن سيعطيه النصر فى الدنيا . والثواب فى الآخره ، وذكره ما ابتدأه به من الإكرام فى يتمه وبحثه عن الهدى . فآواه فى يتمه ، وهداه لأعظم شريعة ، وأغناه من فضله ، فهو لا يتخلى عنه فى أى شأن من شؤون الدنيا والآخرة .

ويقول ابن إسحق : حدثنى بن كيسان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت :

افترضت الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين كل صلاة ، ثم إن الله أتمها فى الحضر أربعًا ، وأقرها فى السفر على فرضها الأول ركعتين . وقال السهيلى : ذكر المزنى أن الصلاة قبل الإسراء كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها ، ويشهد لهذا القول قوله سبحانه : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) ، وقال يحيى بن سلام مثله ، وقال : كان الإسراء وفرض الصلوات الخمس قبل الهجرة بعام ، فعلى هذا يحتمل قول عائشة : « فزيد فى صلاة الحضر » ، أى زيد فيها حين أكملت خمسًا . فتكون الزيادة فى الركعات وفى عدد الصلوات ، ويكون قولها : « فرضت الصلاة ركعتين » أى قبل الإسراء ، وقد قال بهذا طائفة من السلف

منهم ابن عباس ؛ ويجوز أن يكون معنى قولها : « فرضت الصلاة » أى ليلة الإسراء حين فرضت الخمس فرضت ركعتين ركعتين ، ثم زيد فى صلاة الحضر بعد ذلك ، وهذا هو المروىّ عن بعض رواة الحديث المتقدم عن عائشة .

السابقون الكرام :

وذكر ابن إسحق أوائل المسلمين ، فذكر منهم سادتنا : علىّ بن أبى طالب (وقال إنه أسلم وهو ابن عشر سنين) وزيد بن حارثة . وأبا بكر الصديق. ثم قال : فلما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله وإلى رسوله . وكان رجلا مؤلفاً لقومه . محبباً سهلا . وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها . وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلا تاجراً ، ذا خلق ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته . فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه .

قال : فأسلم بدعائه فيما بلغنى : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام . وعبد الرحمن ابن عوف . وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبد الله ؛ وقال ابن إسحق : فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام ، فصلّوا وصدّقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جاءه من الله . ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح . وأبو سلمة . والأرقم . وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله . وعبيدة بن الحارث . وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة بنت الخطاب . وأسماء بنت أبى بكر وأختها عائشة وهى يومئذ صغيرة . وخباب بن الأرت ، وعمير بن وقاص (أخو سعد) . وعبد الله بن مسعود . ومسعود بن القارى .

وذكر ابن إسحق بقية هؤلاء السابقين بأسمائهم . فليرجع إليهم من شاء فى سيرة « ابن هشام » . ثم أضاف يقول :

ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدّثوا به . وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين فيما بلغنى من مبعثه . ثم قال الله

تعالى : (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)[١] ، وقال تعالى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[٢] ، (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)[٣] . قال ابن هشام : اصدع اى أفرق بين الحق والباطل ، وقال ابن إسحق : وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب ، فاستخفوا بصلاتهم عن قومهم . ولما بادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام ، وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه ، حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون . وحدب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ، ومنعه (أى حماه) وقام دونه ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء .

فمشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلّل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تُخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولا رفيقًا ، وردّهم ردًّا جميلا ، فانصرفوا .

العزم المؤكد :

وحين قالت قريش لأبى طالب هذه المقالة ، بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :

يا بن أخى . إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، للذى كانوا قالوا له . فأبق علىّ وعلى نفسك ، ولاتحمّلنى من الأمر مالا أطيق ، قال : فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه بدا لعمه فيه بَدَاء (أى ظهر له فيه رأى) أنه خاذ له ومُسلّمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه .

---

(١) سورة الحجر ، آية ٩٤ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيتان ٢١٤ و ٢١٥ .

(٣) سورة الحجر ، الآية ٨٩ .

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعمّ . والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكى ، ثم قام — فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا بن أخى ، قال : فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً .

أقول ، فما أعظم العزم من سيّد أولى العزم من الرسل ، وكيف لا يكون من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم العزم والمضاء اللذان تصاغر أمامهما فى عينه كل من الشمس والقمر ، والتمسك بالدعوة إلى دين الله ، حتى يظهره الله أو يهلك دونه . أما عبراته التى انسكبت ، فهى ليست جزعاً ولا خوفاً ، ولكنها انسكبت أسفاً على قومه أن يصمّوا آذانهم عن دعوة الحق فى إصرار واستكبار ، ويشهد لذلك قوله تعالى فى سورة الكهف : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفا) ، أى مهلك نفسك لحزنك عليهم ، حين فاتهم ما كان يرجو لهم من الإيمان وهو حياة الروح ، وأصروا على الكفر وهو موتها ، ألست تراه تعالى يقول فى المفارقة بين المؤمن والكافر فى سورة الأنعام : (أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، نزلت فى المقارنة بين سيدنا حمزة بن عبد المطلب وهو المؤمن ، وأبى جهل الكافر ، وحقًّا ما يقول الشاعر الحكيم :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرأ لم يحى بالعلم ميت ... فليس له حتى النشور نشور

والنور فى الآية الكريمة عبارة عن الهدى والإيمان ، وقال الحسن هو القرآن ، وقيل الحكمة ، وقيل هو النور الوارد فى قوله تعالى : (يَوْمَ تَرَى

الْمُؤمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورهُمْ بَيْن أَيْدِيهم وَبأَيْمَانهمْ ..)

وصدق الله العظيم إذ يقول فى سورة الأنعام : (فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّه يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّماءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرجْسَ عَلى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ) .

فضيلة الإيمان :

ولا يخفى على القارئ العزيز أن فضيلة الإنسان كامنة فى روحه التى بين جنبيه ، فإذا فاته أن تتحلى روحه بالإيمان . فقد فاتته الفضيلة كلها . وصار فى حيوانيته البهيمية أضعف من الأسد ، بل من الفيل . بل من الثور ، بل من الذئب . ولكنه إذا تحلى بالإيمان وقويت روحه فى جنب الله . باهى الله به ملائكة السماء ، والإنسان مركب من ملك وملكوت ، فجسده حيوانى من عالم الملك المظلم ، وروحه من عالم الملكوت النورانى الذى خلق الله منه الملائكة . فإذا قويت غرائزه البشرية الشهوانية كان حيواناً مظلماً ، وإذا قويت إشراقات روحه قاومت شهواته البشرية الظاهرة منها والخفية فانصبغ بصبغة العالم الأسنى — وهو عالم الملكوت — فصار عرشياً جسمه بين الخلق يسعى . وروحه فى الملكوت ترعى ، وتميز فى إنسانيته عن بنى جنسه كما قيل :

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وانظر كيف صوّر الله تعالى حياة الشهداء فى قبورهم مع موت أجسادهم أمام أعيننا حيث يقول تعالى فى سورة آل عمران : (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِين قُتِلُوا فِى سَبيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فرحِينَ بمَا آتاهُمُ اللهُ مِنْ فضْلِهِ وَيَسْتبْشِرُون بالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقوا بهِمْ مِنْ خلْفِهِمْ أَلاَّ خوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزنون) ، فى حين يقول سبحانه فى شأن الكافرين فى سورة النمل : (إِنَّك لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدعَاءَ إذا ولَّوْا مُدْبرين *

وَمَا أَنْت بهادِى الْعُمْىِ عنْ ضَلالتِهِمْ إنْ تُسْمِعُ إلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فهُمْ مُسْلِمُون) . فتدبّر كيف عبّر القرآن الكريم عنهم بالموتى وإن تحركت أجسادهم حركة الحياة الظاهرة ، واستمعت آذانهم إلى صوته صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان استماعاً لاهِياً عن التدبر والاتعاظ كما يقول تعالى فى سورة محمد : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتمِعُ إليك حَتَّى إذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِين طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) ، فالحياة الحقة إذن هى حياة الروح بنور الهدى ولو مات الجسد ، والموت موت الروح بظلمة الكفر ولو عاش الجسد .

فأَين استماعهم الصوتى من استماع المؤمنين الروحى الذى قال تعالى واصفاً إياه فى سورة الزمر : (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيث كِتَاباً مُتَشَابِهًا مَثَانِىَ تَقْشعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) ، وأحسن الحديث هو القرآن الكريم ، قال سعد بن أبى وقاص : قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل : (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثَ) ، فقالوا لو قصصت علينا ، فنزل فى سورة يوسف : (نَحْنُ نَقصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) ، فقالوا : لو ذكَّرتنا ، فنزل فى سورة الحديد : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِن الْحَقِّ وَلَايَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُون) ، والمتشابه أى يشبه بعضه بعضاً فى الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضاً ، فلا يتناقض ولا يختلف ، ومثانى أى تُثَنَّى فيه القصص والمواعظ والأحكام ، وثنى للتلاوة فلا يمل القارئ من تكراره ، وتقشعر أى تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد والإنذار ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله أى عند آية الرحمة ، وقيل إلى العمل

بكتاب الله والتصديق به ، وقيل إلى ذكر الله يعنى الإسلام .

وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله ، تحاتت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة البالية ورقها » ، أى سقطت عنه الذنوب كما تسقط أوراق الشجر فى الخريف ؛ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما اقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرمه الله على النار » ؛ وعن ثابت البُنَانى رضى الله عنه قال قال فلان :

إنى لأعلم متى يستجاب لى ، قالوا : ومن أين تعلم ذلك ؟ قال : إذا اقشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى .

* * *

ونعود لما كنا فيه من تطوّر الدعوة إلى الإسلام :

قال ابن إسحق : ثم إن قريشًا تذامروا بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذّبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسول له صلى الله عليه وسلم منهم بعمه أبى طالب . . .

وقد حاول طغاة الكفار أن يجدوا مغمزاً فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعياهم البحث عن مغمز فيه ، ثم اجتمعوا على باطل من تفكيرهم فأحبط الله كيدهم ، وإليك ما يحكيه ابن إسحق :

« ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيًا واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا ، ويردّ قولكم بعضه بعضًا ،

«قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيًا نقول به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع ،

« قالوا : نقول : كاهن ، قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ،

فما هو بزمزمة [١] الكاهن ولاسجعه ،

« قالوا : فنقول : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته ،

« قالوا : فنقول : شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ،

« قالوا : فنقول : ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم [٢] ،

« قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق [٣] ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر ، جاء بقول سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك .

« فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمرّ بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره ،

« فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة قوله تعالى فى سورة المدثر : (ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هٰذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) .

قال ابن إسحق : « وأنزل الله تعالى فى النفر الذين كانوا معه يصنفون

---

(١) الزمزمة هى الكلام الخفى الذى لايسمع .

(٢) إشارة إلى ما كان يفعله الساحر ، بأن يعقد خيطاً ثم ينفث فيه ، ويشير لذلك قوله تعالى (ومن شر النفاثات فى العقد) .

(٣) العذق ، بالفتح النخلة ، يشبه بالنخلة التى ثبت أصلها وقوى وطاب فرعها إذا جنى .

القول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيما جاء به من الله تعالى : (كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[1] قال ابن هشام واحدة العضين عضة يقول عضوه أى فرقوه » .

قال ابن إسحق : « فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن لقوا فى الناس ، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها » .

أقول : وصدق الشاعر الحكيم فى قوله :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

قال ابن إسحق : « فلما انتشر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العرب وبلغ البلدان ، ذكر بالمدينة ولم يكن حىّ من العرب أعلم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر ، وقبل أن يذكر ، من هذا الحى من الأوس والخزرج ، وذلك لما كانوا يسمعون من أخبار اليهود ، وكانوا لهم حلفاء ومعهم فى بلادهم .

ثم إن قريشًا اشتد أمرهم للشقاء الذى أصابهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أسلم معه منهم ، فاغروا برسول الله صلى الله عليه وسلم سفهاءهم ، فكذّبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظهر لأمر الله لايستخفى به ، معادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه إياهم على كفرهم .

أقول : وكيف يعبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذاهم واستهزائهم وقد قال له ربه فى سورة المدثر : (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) كما قال له فى سورة الأحزاب : (وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً) ؛ وإذا أردت أن ترى مثلا من ثباته وشجاعته فاستمع إلى ما يحكيه ابن إسحق عن يحيى بن عروة ابن الزبير عن أبيه عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

---

(١) سورة الحجر ، الآيات ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ .

« قلت له ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانوا يظهرون من عداوته ؟ قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا فى الحِجْر[١]، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ،سفّه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا، وفرّق جماعتنا ، وسبّ آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، أو كما قالوا ،

« فبينما هم فى ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت ، فلما مرّ بهم غمزوه[٢] ببعض القول ، قال : فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ثم مضى فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف ، ثم قال صلى الله عليه وسلم :

" أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح "

« قال فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة (أى وصية) قبل ذلك ليرفؤه (يهدئه ويسكنه) بأحسن ما يجد فى القول ، حتى إنه ليقول انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولا .

« قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه ، فبيناهم فى ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ، لما كان يقول فى عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعم ، أنا الذى أقول ذلك " ،

قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه — قال : فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، ثم انصرفوا عنه ، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط » .

---

(١) أى حجر إسماعيل بالكعبة .

(٢) أى طعنوا فيه .

ويقول ابن إسحق :

« فلما أسلم حمزة[١] عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه » .

أقول : وهاك أبياتاً فى الشعر قالها سيدنا حمزة رضى الله عنه معتزًّا بإسلامه حين أسلم :

حمدت الله حين هدى فؤادى ... إلى الإسلام والدين الحنيف
لدين جاء من رب عزيز ... خبير بالعباد بهم لطيف
إذا تليت رسائله علينا ... تحدر دمع ذى اللب الحصيف
رسائل جاء أحمد من هداها ... بآيات مبينة الحروف

روعة القرآن :

قال ابن إسحق :

« حدثت أن عتبة بن ربيعة — وكان سيداً — قال يومًا وهوجالس فى نادى قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحده :

يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكفّ عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون، فقالوا : بلى يا أبا الوليد قُمْ إليه فكلمه

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا بن أخى إنك منا حيث قد علمت من السِّطة[٢] فى العشيرة ، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرّقت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

---

(١) هوسيدنا حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان كما وصفوه أعز فتى فى قريش وأشدهم بأساً .

(٢) أى الشرف .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قل يا أبا الوليد ، أسمع " ، قال : يا بن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًّا[1] تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع[2] على الرجل حتى يداوى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال :

" أقد فرغت يا أبا الوليد" ؟ قال نعم ، قال : "فاسمع منى " ، قال : افعل ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (سورة فصلت) :

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * حٰمٓ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيهِ وفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَىَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمدًا عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها ، وهى قوله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاه تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ

---

(١) مايتراءى للإنسان من الجن .

(٢) أى الذى يتبع الناس من الجن .

وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ) . فسجد وكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال : ورائى أنى قد سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال : هذا رأيى فيه، فاصنعوا مابدالكم» .
قال ابن إسحق :

« ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة فى قبائل قريش من الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين » .

التحدى بالأسئلة :

أقول ملخصاً مما رواه ابن إسحق بسنده : وبلغ من تحديهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم أرسلوا وفداً من مكة إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فلما جاء الوفد إلى أحبار اليهود قالوا : إنكم أهل التوارة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، فقالت أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل ، فروا فيه رأيكم .

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هى ؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل فاصنعوا فى أمره مابدالكم .

فرجع الوفد إلى مكة ، وجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن تلك المسائل فنزلت فى إجابتهم سورة الكهف ، فتعرضت لقصة أهل الكهف ، ولقصة ذى القرنين تفصيلا ، وقال تعالى فى سورة الإسراء عن الروح : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ .

قال ابن إسحق : « وحدثت عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، قالت أحبار اليهود : يا محمد أرأيت قولك : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قليلاً) إيّانا تريد ؟ أم قومك ؟ قال : كلاً ، قالوا : فإنك تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شىء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها فى علم الله قليل ، وعندكم فى ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه .

قال فأنزل الله تعالى فيما سألوه عنه من ذلك فى سورة لقمان : ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

معرفة الله تعالى :

أقول : والروح — كما عرفنا الله — هى سر من أسرار الله ، وهى من أمره ، يودعها الله أجسادنا بقدرته ونحن أجنة فى بطون أمهاتنا ، ويتكلم عن بعض خواصها — دون ذاتها — سيدى ابن عطاء الله السكندرى فيقول رضى الله عنه :

« إن معرفة الله فطرية فى النفس ، ويستند فى ذلك كما سلف القول إلى قوله تعالى فى سورة الأعراف : (وَإِذ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدم مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ) .

ويستطرد قائلا :

« فلما هبطت الأرواح فى الأبدان ، احتجبت المعرفة الفطرية بالله بحجاب البشرية الكثيف ، فستر الله بذلك سر خصوصيته ، وجاء فى حكمه رضى الله عنه : سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العبودية » .

ثم أضاف رضى الله عنه يقول :

«ومن هنا كانت المعرفة بالله أعسر المعارف ، فإنه لا مثل لله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ، ومع هذا فرض الله على عباده جميعاً معرفة ذاته وأسمائه وصفاته ، ويفصل ذلك فيقول :

« والمعرفة بالله قد تكون إثبات وجوده وتقديسه عما لا يليق به ، ووصفه على ما هو عليه وبما وصف به نفسه ، وهذه معرفة عامة المكلفين، وهى مفروضة عليهم ، وتسمى بالمعرفة العامة ،

« وقد تكون حالا يحدث من شهود ذوقى ، ويكون العارف هو من أشهده الله ذاته وصفاته وأسماءه وأفعاله، وتسمى هذه المعرفة بالمعرفة الخاصة ، وهى معرفة الصوفية التى لا تستند إلى العقل وإنما تستند إلى الذوق » .

ويقول رضى الله عنه : « ولما كانت المعرفة الفطرية قبساً من نوره أودعه قلوب أوليائه ، فإنها لن تأفل أبداً، وليست كذلك المعرفة التى تأتى عن طريق النظر فى الآثار فهى تأفل بأفول الآثار» .

ويرى سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه أن القلب كلما زهد فى الدنيا (بمعنى طرحها من قلبه لا من يده) وانعدم منه الهوى والحرص والأمل، وازداد إيمانه ، ثم توحيده ، امتلأ بالتوحيد فصار عرشياً، وتنزّه عن أوصاف البشرية تماماً ، وشرفت فى الملأ الأعلى صفاته ، وعلت رسمت فى الملأ الأسفل واكتملت بنور اسم الذات بصيرته ، وتخلق بأخلاق الله (أى على قدر بشريته فيكون مثلا رؤوفاً أو رحيماً على قدره كما شاء له الله من الرأفة والرحمة ،

أما الصفات القديمة الأزلية فلله وحده سبحانه) . وصارت الأسماء الحسنى وصفه ونعته ، وصار محققًا مستبصراً فانياً فى شهود المذكور عن ذكره . ويضيف رضى الله عنه قائلا : وفى هذا القلب ورد فى الحديث القدسى لايسعنى عرشى ولاكرسي ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى » .

ويعلمنا رضى الله عنه معنى الحديث المتقدم فيقول فى روعة ظاهرة :

« إن قلب الإنسان لا يسع الله مساحة ، ولا خيالا ، ولا حلولا ، ولا حساً ، ولاحكماً ، وإنما يسعه توحيداً ، وإيماناً ، وعلماً ، ومعرفة ، وإيقاناً ، ومحبة ، وإخلاصًا ، فضلا من الله وتخصيصًا » .

ويقول شيخى وسيدى العارف بالله الشيخ على عقل طيب الله ثراه ، فيما نقلناه عنه من حكمه الملهمة لوقتها دون إعمال فكر مما يعطيه الله خواص أوليائه :

واكتحال العيون أيسر شىء واكتمال القلوب صعب المنال
هو ذكرٌ ورغبةٌ وشهـــودٌ ووفاءٌ للخـــالـــق الفعّـــال

ومن ذلك نرى أنه لابد من صبر ومصابرة ، وجهد ومجاهدة للوصول إلى معرفة الله جل جلاله ، وليس بينك وبينه تعالى مسافة تقطعها حتى تصل إليه ، وإنما الوصول هو أن تصل إلى حضرة تشهد فيها بمذاقك أن لا فاعل إلا الله ، لأنه لا إله سواه ، والكل مهما علوا فهم فى قبضة عزته ، ليس لهم من أمورهم إلا ما شاء الله وقضاه . كما يقول أمير الشعراء شوقى رحمه الله :

سبحانه الملك إليـــه ولـــه يؤتيه أو ينزعـــه ممـــن يشـــا

الروح والمادة :

وما دمنا فى وادى الروح وما حباها الله به ، فلنقرأ روائع جادت بها قريحة شاعر المسلمين العبقرى السيد محمد إقبال الباكستانى رحمه الله ، وقد ترجم كلامه إلى العربية صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان مدّ الله فى عمره :

ودنيا الروح سكر بالمعـــانى وصحـــو بالـــرقى وبالمعـــالى

فعش للروح فى دنيا وأخرى ··· تفز بالعالَمَين بلا زوال
وإن أمسيت للأموال عبداً ··· فقدتهما معًا فى كل حال
وإن أصبحت فى الأكوان حرًّا ··· فأنت من الكمال إلى كمال
وكسب المال للمخلوق حق ··· ولكن لا تبع شرفًا بمال
وإن المال قد يأتى ويمضى ··· وأنت وما ملكت إلى ارتحال

وإن أردت كيف يشهد الأولياء ربهم فتتعلق به أرواحهم فى جميع أوقاتهم ، فتسعد بذلك الشهود السعادة الحقة ، فاستمع إلى ما قاله إلهامًا لوقته سيدى وشيخى الشيخ على عقل ، نوّر الله ضريحه ، ونقلناه عنه ، وهو يريك كيف تعلق بربه واتجه إليه فى كل أوقاته :

قبلتى فى الصلاة ساعة وقت ··· كم مصلٍّ بعد الصلاة تلاهى
إنما قبلتى جميع حياتى ··· هى ذات الإله لن أنساها
فمسائى مع اليقين نهار ··· ونهارى سعادة برضاها
طاف بى النور فالمعارف بحرى ··· تلفظ الدر وهى لا تتناهى
وارتقاء الأرواح فى مورد العلم ··· يُصَفِّى الأرواح من دنياها
وانعدام الأهواء والحس منها ··· هو معنى السموّ مسراها
يا سرورى بقوله يا عبادى ··· أنا فى سمعها أنال رضاها

وما دامت العناية الإلهية قد أسعدتك بالإيمان بالله من قبل أن يكون منك عمل ، فلماذا لا تسأل الله المزيد من فضله كما فعل سيدى ابن عطاء الله فى مناجاته :

« إلهى ، هذا ذلى ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لا يخفى عليك . منك أطلب الوصول إليك . وبك أستدل عليك . فاهدنى بنورك إليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك .

« إلهى : أغننى بتدبيرك عن تدبيرى ، وباختيارك عن اختيارى ، وأوقفنى على مراكز اضطرارى ،

« إلهى : بك أستنصر فانصرنى ، وعليك أتوكل فلا تكلنى ، وإياك أسأل

فلا تخيبنى ، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى ، وببابك أقف فلا تطردنى ،

« أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك ، وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ، ولم يلجأوا إلى غيرك ، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم ،

« ماذا وجد من فقدك ؟ وما الذى فقد من وجدك ؟ لقد خسر من بغى عنك متحولا ، وقد خاب من رضى دونك بدلا ، كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان ، أم كيف يطلب غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان .

وإذا أردت أن تصدق فى عبوديتك لله ، فاستمع إلى ما ينصحك به رضى الله عنه فى قوله :

«تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ، تحقق بذُلِّك يمدك بعزته ، تحقق بعجزك يمدك بقدرته ، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته ،

« كيف يشرق قَلْبٌ صور الأكوان منطبعة فى مرآته (أى أعطى المادة كل اهتمامه وتجاهل أمر الروح) أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ، أم كيف يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته » .

ثم انظر كيف اشتغل سيدى وشيخى الشيخ على عقل عن الناس وعيوبهم بحب ربه الأعلى ، فقال رضى الله عنه فى إلهامه الفورى :

أمـلى فى الله يقبـلنى ... فسوى الرحمـن لم أرُمِ
أنا من حـبى لحضرته ... تارك للنـاس كلهم
أنا من حـبى لحضرته ... لم أفـق من لذة النغم
لم أزل فى حـى حضرته ... مرتعًا للعـلم والحـكم
وفؤادى مـن هـدايته ... يرتوى مـن مورد الـكرم
وبقـلبى مـن محبتـه ... همة من أعـظم الهـمم

هاجني وجــدى وبه حرق — لم تــكن من شهدة الضرم
بل هى الأنوار يقــذفها — فسرت فى مهجــتى ودمى

وإذا أردت أن تعرف كيف اغتنى بربه تعالى واستغنى عن الناس فاستمع إلى قوله :

فتشت كل الخلق عن علم فــلم — أر لى سوى رب السما مــن وال
فتركت كل العــالمين وجئتــه — وجعلت ذكرى ذاتــه منوالى

آفات النفس :

وهو بعد ذلك يشرح لنا كيف نحذر أنفسنا ونجاهدها فى تزكية أرواحنا ، مصداقاً لقوله تعالى فى سورة النازعات : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) ، فيقول رضى الله عنه وكان أحد الحاضرين سأله أن يأتى له بأبيات من إلهامه الفورى على وزن البيت الآتى وقافيته :

عجبًا لها تهوى الذى تهوى بــه — دون الذى تعلو به فى ذاتها

فكان مما قاله فوراً من إلهامه المتدفق ونقلناه عنه :

عجبًا لها تهوى الذى تهوى به — كم عالم قــد زل مــن نزعاتها
تنأى عن الإصلاح طول حياتها — وتواصل الإقبال فى شهواتهــا
تدعى لتأدية الصلاة وإنمــا — شغلت بغير الله حــين صلاتها
وقفت على الدينار حسن بلائها — فأمالهــا عن هديها وهداتها
قد رحبت بالسيئات مريضــة — وتضج إن دعيت إلى حسناتها
جهلت طريق الخير وادعت الهدى — كم تكثر الدعوى على قرباتهــا
ضحكت على جهالها فتوهموا — أن العلا والفوز فى نزواتهــا
ظنوا بنفسهمو الكمال وإنمــا — تتوافق الجهلاء فى غاياتهــا
فنحا مسيلمة النبــوة وانتهى — فرعون للتأليه مــن عثراتهــا
والنفس ما برحت تضل وما بهــا — نور يريح النفس من ظلماتهــا
فانصح لنفسك فى الأمور لعلها — قد ترزق الأنوار فى سبحاتهــا
ترضى تسفلها لكل تقيصــة — دون الذى تعــلو به فى ذاتهــا

تعنت الكفار :

وإذا أردت أن ترى كيف جمحت بالكفار نفوسهم ، ونأت فى جموحها عن اتباع دعوة الحق ، فاقرأ ما وصف به الله تعالى موقفهم من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله الكريم فى سورة الفرقان :

(وَقَالُوا مَا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا) .

فانظر كيف عموا بالحس والمادة عن الروح وأنوارها ، فإن خصوصية الرسل عليهم صلوات الله وسلامه فى بواطنهم وإن شاركونا فى بشريتهم ، قال تعالى فى سورة الكهف : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ) فهو إن كان بشرًا مثلنا من حيث جنسه، فإنَّه تميَّز عنَّا بوحى يوحيه إليه ربه ، ليبلغه إلينا بأمره سبحانه،ويشهد لذلك قوله تعالى فى سورة المائدة : (يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) .

وقد رد الله تعالى على قولهم المتقدم فقال تعالى فى سورة الفرقان : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) ، وفى ذلك دفاع قوى عن رسول الله ، وتسلية له صلى الله عليه وسلم .

واقرأ مرة أخرى ما حكاه الله عن عنادهم وجحودهم وإصرارهم فى قوله تعالى فى سورة الإسراء :

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِى السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولا).

ولو أنهم رشدوا لاكتفوا بمعجزة القرآن التى تحدى بها الله تعالى الإنس والجن ، وقال فى تحديه لهم فى سورة الإسراء : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) .ولكنهم تجاهلوا الحق، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ؛ وسفهت عقولهم فيما طلبوا ، فإنهم طلبوا فيما طلبوا كما رأيت تدمير الكون فى قولهم : (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً) ؛ أى قطعاً ، ولو سقطت عليهم لهلكوا جاحدين ، وقد مَنَّ الله على الناس بإمساكه السماء أن تقع على الأرض فى قوله تعالى فى سورة الحج : (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إلا بِإِذْنِهِ) وبلغ بهم الجحود أن يقولوا . . . (. . . أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا) ؛ أى كفيلا وشاهداً على صدق ما تدعيه .

وقد ذكرنى تحدّيهم العنيد بنكتة طريفة وقعت بين معاوية بن أبى سفيان ورجل يمنى ، فقد دخل اليمنى على معاوية ، فقال معاوية مازحاً معه : ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة (يقصد بها بلقيس ملكة سبأ) فرد الرجل عليه فى ذكاء واضح قائلا :أجهل من قومى قومك الذين حكى

الله عنهم فقال تعالى فى سورة الأنفال : (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُم إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) . فهلَّا قالوا : فاهدنا إليه .

ونعود إلى ما يحكيه ابن إسحق :

« فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوا عنه ، حال الحسد بينهم وبين اتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله ، وتركوا أمره عيانًا ، ولجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم :

(لا تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)[1] ، أى اجعلوه لغوًا وباطلًا ، واتخذوه هزوًا لعلكم تغلبونه بذلك ، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوماً غلبكم .

فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلى ، استرق السمع دونهم فرقًا[2] منهم ، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ، ذهب خشية أذاهم فلم يستمع ، وإن خفض رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته ، فظن الذى يستمع أنهم لا يستمعون شيئا من قراءته ، وسمع هو شيئًا دونهم ، أصاخ له يستمع منه » .

وأضاف ابن إسحق يقول :

حدثنى داود بن الحصين مولى عمرو بن عثمان ، أن عكرمة مولى ابن عباس حدّثهم أن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما حدّثهم : إنما أنزلت هذه الآية : (وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلًا)[3] من أجل أولئك النفر ، يقول: لا تجهر بصلاتك فيتفرقوا عنك ،ولا تخافت بها فلا يسمعها من يحب أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم ، لعله يرعوى إلى بعض ما يسمع فينتفع به .

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٢٦ .
(٢) خوفاً .
(٣) سورة الإسراء ، الآية ١١٠ .

قال ابن إسحق :

« وحدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق الثقفى ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه ، كل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا (لام بعضهم بعضًا) وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئًا ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

« حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لانبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

« فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج ، حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا يراد بها ، قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به كذلك .

« قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا[1] على الرُّكب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ، قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

---

(١) أى جلسنا ، والحاذى والجاثى سواء .

قال ابن إسحق :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله قالوا : يهزءون به - (قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) لا نفقه ما تقول ؛ (وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ) ، لا نسمع ما تقول : (وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) ، أى ساتر قد حال بيننا وبينك ، (فَاعْمَلْ) بما أنت عليه (إِنَّنَا عَامِلُون)[1] بما نحن عليه ، إنا لا نفقه عنك شيئًا ، فأنزل الله عليه فى ذلك قوله تعالى : (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وفِى آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلا مَسْحُوراً ، انظرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ، وَقَالُوا أَئِذَا كنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلقاً جَدِيداً ، قلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قلِ الذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً ، يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا)[2] .

أقول : فانظر كيف نَفَرُوا من توحيد الله حيث أصروا عنادًا على الكفر ، والحظ كيف غابت عقولهم عن آية الله فى إيجادهم ، فاستبعدوا أن يعيدهم بقدرته فى الآخرة ؛ ولو فكروا تفكيرًا سليماً فى الرد على سؤالهم : (مَنْ يُعِيدُنَا) ، وهو قوله تعالى : (قلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّة) لرشدوا . ولكنهم بدل أن

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٥

(٢) سورة الإسراء ، الآيات من ٤٥ إلى ٥٢ .

يتفكروا لووا رؤوسهم تعجباً واستهزاء من أمر البعث بعد الموت ، فكانوا من أصحاب النار ، والعياذ بالله .

وما أروع ما يقول إمامنا على بن أبى طالب: عجبت لمن شك فى الله وهو يرى خلق الله ، وعجبت لمن شك فى الموت وهو يرى الموتى ، وعجبت لمن شك فى النشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى، وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء .

البحث عن الحق :

ويتكلم سيدى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى فى كتاب « الفتوحات » عن المفكرين الباحثين عن الحق من غير هوى فى نفوسهم ، فيقول فى الباب السادس والستين :

بحثوا عن حقائق نفوسهم لما رأوا أن الصورة الجسدية إذا ماتت ما نقص من أعضائها شيء، فعلموا أن المدرك والمحرك لهذا الجسد إنما هو أمر آخر زائد عليه، فبحثوا عن ذلك الأمر الزائد فعرفوا نفوسهم، ثم رأوا أنها تعلم بعدما كانت تجهل، فعلموا أنها إن كانت أشرف من أجسادها فإن الفقر والفاقة يصحبها، فاعتلوا بالنظر من شيء إلى شيء ، وكلما وصلوا إلى شيء رأوه مفتقراً إلى شيء آخر ،

حتى انتهى بهم النظر إلى شيء لا يفتقر إلى شيء، ولا مثله شيء، ولا يشبه شيئاً، ولا يشبهه شيء ، فوقفوا عنده وقالوا : هو الأول، وينبغى أن يكون واحداً لذاته من حيث ذاته ، وأن أوليته لا تقبل الثانى، ولا أحديته، لأنه لا شبه له ولا مناسب، فوحدوه توحيد وجود ،

ثم لما رأوا أن الممكنات لأنفسها لا ترجح لذاتها، علموا أن هذا الواحد أفادها الوجود ، فافتقرت إليه وعظمته بأن سلبت عنه جميع ما تصف ذواتها به، فهذا حد العقل ، فبينما هم كذلك، إذ قام شخص من جنسهم لم يكن عندهم من المكانة فى العلم ، بحيث إن يعتقدوا فيه أنه ذو فكر صحيح ونظر صائب. فقال لهم : أنا رسول الله إليكم، فقالوا : الإنصاف أولى، انظروا فى نفس دعواه، هل ادعى

ما هو ممكن أو ادعى ما هو محال ؟ فقالوا إنه قد ثبت عندنا بالدليل أن لله فيضا إلهيًّا يجوز أن يمنحه من يشاء ، كما أفاض ذلك على أرواح هذه الأفلاك ، وهذه العقول ، والكل قد اشتركوا فى الإمكان ، وليس بعض الممكنات بأولى من بعض ، فيما هو ممكن ، فما بقى لنا نظر إلا فى صدق هذا المدعى أو كذبه ، ولا نقدم على شىء من هذين الحكمين بغير دليل فإنه سوء أدب مع علمنا ،

فقالوا : هل لك دليل على صدق ما تدعيه ؟ فجاءهم بالدلائل . فنظروا فى دلالته وفى أدلته ، ونظروا أن هذا الشخص ما عنده خبر مما تنتجه الأفكار ولا عرف منه ، فعلموا أن الذى أوحى فى كل سماء أمرها كان مما أوحاه فى كل سماء وجود هذا الشخص وما جاء به ، فأسرعوا إليه بالإيمان وصدقوه . وعلموا أن الله قد أطلعه على ما أودعه فى العالم العلوى من المعارف ما لم تصل إليه أفكارهم . ثم أعطاه من المعرفة بالله ما لم يكن عندهم . ورأوا نزوله فى المعارف بالله إلى العامى الضعيف (١) الرأى بما يصلح لعقله فى ذلك ، وإلى الكبير العقل الصحيح النظر بما يصلح لعقله فى ذلك ، فعلموا أن الرجل عنده من الفيض الإلهى ما هو وراء طور العقل ، وأن الله قد أعطاه من العلم به والقدرة عليه ما لم يعطه إياهم ، فقالوا بفضله وتقدمه عليهم ، وآمنوا به وصدقوه واتبعوه ، فعين لهم الأفعال المقربة إلى الله تعالى . وأعلمهم بما خلق الله من الممكنات فيما غاب عنهم ، وما يكون منه سبحانه فيهم فى المستقبل . وجاءهم بالبعث والنشور والحشر والجنة والنار ،

ثم إنه تتابعت الرسل على اختلاف الأزمان واختلاف الأحوال ، وكل واحد منهم يصدق صاحبه . ما اختلفوا قط فى الأصول التى استندوا إليها وعبروا عنها وإن اختلفت

---

(١) ولذلك ترى القرآن الكريم يخاطب الناس على قدر عقولهم ، فخاطب العوام بالمحسوسات كما بينا من قبل : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت) ويخاطب العلماء بالعلم فيقول تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) . ويخاطب الأنبياء فى أنفسهم فيقول تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) .

الأحكام فتنزلت الشرائع ونزلت الأحكام، وكان الحكم بحسب الزمان والحال كما قال تعالى: (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)[1]، فاتفقت أصولهم من غير خلاف فى شىء من ذلك ، وفرقوا فى هذه السياسات النبوية المشروعة من عند الله، بينها و بين ما وضعت الحكماء من السياسات الحكمية التى اقتضاها نظرهم، وعلموا أن هذا الأمر أتم ، وأنه من عند الله بلا شك ، فقبلوا ما أعلمهم به من الغيوب وآمنوا بالرسل ، وما عاند أحد منهم إلا من لم ينصح نفسه فى علمه واتبع هواه ، وطلب الرياسة عن أبناء جنسه ، وجهل نفسه وقدره ، وجهل ربه ، فكان أصل وضع الشريعة فى العالم وسببها طلب صلاح العالم ، ومعرفة ما جهل من الله مما لا يستقل به العقل من حيث نظره ، فنزلت بهذه المعرفة الكتب المنزلة ، ونطقت بها ألسنة الرسل والأنبياء عليهم السلام ، فعلمت العقلاء عند ذلك أنه نقصها من العلم بالله .أمور تممتها لهم الرسل .

وهو كلام نفيس ، فليحرص القارئ الكريم على تفهمه والانتفاع به .

ونعود لتاريخ الدعوة للإسلام فنقول :

اشتداد الأذى :

قال ابن إسحق : « ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يتصلب لهم ويعصمه الله منهم .

الهجرة إلى الحبشة :

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وماهو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه أبى طالب ، وأنه لايقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم :

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٨ .

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه » ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة فى الإسلام .

أقول : وكان ممن هاجر الهجرة الأولى للحبشة سيدنا عثمان بن عفان وزوجته السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيدنا الزبير بن العوام ، وسيدنا مصعب بن عمير ، وسيدنا عبد الرحمن بن عوف ، وسيدنا أبو سلمة بن عبد الأسد وزوجته السيدة أم سلمة ، وسيدنا عثمان بن مظعون ، وسيدنا جعفر ابن أبى طالب وزوجته السيدة أسماء بنت عميس، رضى الله عن جميعهم وعن سائر المهاجرين .

ويقول ابن إسحق : فكان جميع من لحق بأرض الحبشة ، وهاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً وولدوا بها، ثلاثة وثمانين رجلا .

ائتمار قريش بمهاجرى الحبشة :

حدث ابن إسحق بسنده عن أم سلمة رضى الله عنها قالت :

لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشى ، أمِنَّا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، لانؤذى ولانسمع شيئًا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشًا ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين ، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان أعجب ما يأتيه منها الأدَم (الجلد) فجمعوا له أدمًا كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية ،

ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص (أى قبل اعتناق الإسلام) وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم ، ثم قدما إلى النجاشى هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشى ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى ، وقالا

لكل بطريق منهم : إنه قد ضوى (بلجأ) إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم وجاءوا بدين مبتدع ، لانعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينًا (أى أدرى بهم) وأعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما : نعم .

ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشى فقبلها منهما ، ثم كلماه فقالا له :

أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لانعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينًا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شىء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشى ؛ قالت : فقالت بطارقته حوله : صَدَقَا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينًا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

قالت : فغضب النجاشى ثم قال : لاها الله ، إذن لا أسلمهم إليهما ، ولا يُكاد قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟

قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائنًا فى ذلك ما هو كائن .

فلما جاءوا ، وقد دعا النجاشى أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله ، سألهم فقال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ، ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

جعفر يشيد بالإسلام :

قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب رضوان الله عليه فقال له :

« أيها الملك . كنا قومًا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ،

« وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفحشاء ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات .

« وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لانشرك به شيئًا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ،

قالت : فعدد عليه أمور الإسلام . فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئًا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

قالت : فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله من شىء ؟

قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشى : فاقرأه علىّ ، قالت فقرأ عليه صدراً من كهيعص .

قالت : فبكى والله النجاشى حتى اخضلت (ابتلت) لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ماتلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشى : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون .

قالت : فلما خرجا من عنده ، قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً عنهم

بما أستأصل خضراءهم ، قالت : فقال له عبد الله بن أبي ربيعة ، وكان أتقى الرجلين فينا . لا تفعل ، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا ، قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ،

قالت : ثم غدا عليه من الغد ، فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيماً ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه ، قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه ، قالت : ولم ينزل بنا مثلها قطّ ، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله ، وما جاءنا به نبينا ، كائناً فى ذلك ما هو كائن .

قالت : فلما دخلوا عليه ، قال لهم : ما ذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟

قالت : فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم ،

يقول : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ،

قالت : فضرب النجاشى بيده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود (أى بمقدار هذا العود) قالت : فتناقرت بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى — والشيوم الآمنون — من سبكم غرم ، ثم قال من سبكم غرم ، ثم قال : من سبكم غرم ، ما أحب أن لى دبراً من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم (والدبر بلسان الحبش أى الجبل) ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد علىّ[1] ملكى ، فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فىّ فأطيعهم فيه .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة .

---

(١) كان قد نازعه رجل فى ملكه ، فدعا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم للنجاشى بالنصر على عدوه والتمكين له فى بلاده ، فاستجاب الله دعوتهم ، وانتصر النجاشى ، وأهلك الله عدوه ، وقالت السيدة أم سلمة عندما علم الصحابة بنصره : فوالله ما علمتنا فرحنا فرحة قط مثلها .

تعقيب :

أقول: أرأيت أيها القارئ العزيز مما قصته علينا السيدة أم سلمة رضى الله عنها كيف اصطرع الحق والباطل، وكيف استمسك سادتنا المهاجرون بالحق، وكيف تحملوا فى سبيله من الأذى ، فإن الكفار لم يكتفوا بإيذائهم فى مكة ، بل أرسلوا من ورائهم من يكيد لهم بالحبشة عند النجاشى ،ولكن الله أحبط كيدهم ، فكان النجاشى باهراً فى موقفه ، عظيماً فى مسلكه ، كريماً فى دينه وكرمه وخلقه ، عفيفاً أبياً ، صادقاً وفياً ، حمى نزيله ، وأكرم جاره ، وانتصر للحق وكان فى كل ذلك على نور من ربه ، فلا تعجب بعد ذلك أن يكون وكيلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى زواجه بالسيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان التى تنصر زوجها فى الحبشة بعد أن كان مسلماً ، ففارقته بعد أن نصحت له ، وخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفتنها أبوها أبو سفيان بن حرب لو عادت إليه بمكة (وكان حينئذ على كفره) وهى مسلمة ، فتزوجها ، ووكل النجاشى فى العقد عليها ، فحمى صلى الله عليه وسلم عقيدتها بذلك الزواج الذى أسعدها الله به فى الدنيا والآخرة .

كذلك لاتعجب إذا علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى إلى أصحابه بالمدينة المنورة النجاشى حين أعلمه الله بموته (فى رجب سنة تسع من الهجرة) ، وصلى عليه صلاة الغائب فى البقيع ، وكانت تلك أول صلاة صليت فى الإسلام على الغائب ، رفع إليه سريره بأرض الحبشة حتى رآه وهو بالمدينة ، فصلى عليه ، واستغفر له ، وتكلم المنافقون ، فقالوا : انظروا إلى هذا ، يصلى على علج نصرانى لم يره قط ، فأنزل الله تعالى فى سورة آل عمران :

(وإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

قال ابن إسحق :

وحدثنى يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما مات النجاشى كان يُتَحدّث أنه لايزال يُرى على قبره نور .

مناقب جعفر وابنه عبد الله :

وأقول : أرأيت كيف تكلم سيدنا جعفر بن أبى طالب عن الإسلام ودعوته ، وكيف وصف ما كانوا فيه قبل الإسلام ، وما صاروا إليه بعد إسلامهم ، وكيف صارح النجاشىّ بعقيدة المسلمين فى غير مجاملة أو مواربة ، إرضاء لله ورسوله كائنة ما كانت العاقبة ، ولقد خاف الله من فوقه ، فأمنهم الله جميعًا بما قال صادقًا ، فعاشوا كما قالت سيدتنا أم سلمة رضى الله عنها فى خير دار مع خير جار ، أما فصاحة ما تكلم به سيدنا جعفر وجزالته فلا تعجب لها ، فإنه من رؤساء بنى هاشم وسادتهم ، وبنو هاشم كما تعلم من فصاحتهم جميعًا إنما يغرفون من بحر الفيض الذى ليس له قرار ، وهم كما وصفهم الجاحظ ملح الأرض (أى لا تصلح إلا بهم كما لا يصلح الطعام إلا بالملح) وزينة الدنيا ، وحلى العالم ، والسنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم .

إنه والله جعفر الذى قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عينيه وقال : لست أدرى بأيهما أنا أشد فرحًا ، بلقاء جعفر أم بفتح خيبر ، وكان صلى الله عليه وسلم قد انتصر على اليهود فى خيبر حين لقيه جعفر عائداً من الحبشة .

وهو والله جعفر الذى فدى الإسلام بروحه ، فبذلها دفاعًا عنه فى مؤتة ، وكان يومئذ صاحب اللواء بعد أن استشهد زيد بن حارثة ، فلما ضرب الأعداء جعفراً وقطعوا يمينه ، أمسك الراية بيساره ، فقطعوا يساره ، فأمسك الراية بين ذراعيه بعد أن قطعوا يديه حتى أخذها عبد الله بن رواحة ، فاستشهد كما استشهد من قبله زيد وجعفر ، ألا رَضِىَ الله عن أسُود الشرى وسيوف الإسلام، فكم نحن مدينون لهؤلاء الأبطال فى الحفاظ على دين الإسلام حتى وصل إلينا بسلام .

وهو والله جعفر الذى بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجته السيدة أسماء بنت عميس رضى الله عنها بأن الله أبدله بيديه المقطوعتين جناحيْن يطير بهما فى الجنة، فسمى « ذا الجناحين »، كما سمى « الطيّار »، إنه آمن بالله إيمان الصادقين، ومات فى سبيله ميتة الصدّيقين، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاعتزاز به: « أما جعفر فلا بواكى له » ، وهو أبو عبد الله بن جعفر الذى دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: « اللهم بارك لعبدالله فى صفقة يمينه » وكان عبد الله لسخائه يسمى قطب السخاء ، وقد تغنى بسخائه الشعراء فقالوا :

إنك يا بن جعفر نعم الفتى ونعم مأوى طارق إذا أتى
ورب ضيف طرق الحى سرى صادف زاداً وحديثًا ما اشتهى

كما قالوا فيه :

وما كنت إلا كالأغر ابن جعفر رأى المال لا يبقى فأبقى له ذكرا

وعبدالله هو زوج السيدة زينب بنت عمه الإمام علىّ بن أبى طالب ، التى بوركت بلادنا بمشهدها الأنور ، وهو أول مولود ولد للمسلمين فى الحبشة ، وأمه هى السيدة أسماء بنت عميس ، التى افتخر عليها سيدنا عمر بالهجرة إلى المدينة المنورة حين كانت بالحبشة ، فقالت له : لقد كنتم بجوار رسول الله يطعمكم ويسقيكم، وكنا فى بلاد غربة نعانى ما نعانى من ألم الجوع والعطش ، ثم شكته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : وماذا قلت له ، فقالت : قلت له لقد كنتم بجوار رسول الله يطعمكم ويسقيكم . . . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مطيبا خاطرها : « له ولأصحابه هجرة ، ولكم أهل السفينة هجرتان » .

إنها والله تضحيات عزيزة ، ولكنهم أرخصوها فى سبيل الله حتى تغنّى حاديهم وهم مهاجرون إلى الحبشة :

الأهل والأوطان فراقهم صعب
لكنه الإيمان فداؤه القلب
والروح والأبدان فليقبل الرب

فليقبل الرب

قال ابن إسحق :

ولما لم ينالوا من مهاجرى الحبشة ما أرادوا ، وأسلم عمر بن الخطاب وكان رجلا ذا شكيمة ، امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحمزة حتى عازُّوا (غلبوا) قريشًا ، وكان عبد الله بن مسعود يقول : ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب ، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة .

وهو عمر الذى قال فيه ابن مسعود رضى الله عنهما : إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، فليستمع القارئ الكريم إلى حديث عجب فى إسلامه رضى الله عنه ، ليرى أثر الإسلام فيه ، وأثر عمر فى الإسلام .

إسلام عمر :

روى ابن إسحق فى إسلام عمر روايات مختلفة، ومما روى بسنده عن عطاء ومجاهد أن إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه أنه كان يقول :

« كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية، أحبها وأسرّ بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال بالحزورة (سوق مكة) ، قال فخرجت ليلة أريد جلسائى أولئك فى مجلسهم ذلك ، قال فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً ، فقلت لو أنى جئت فلانًا الخمار ، وكان بمكة يبيع الخمر ، لعلى أجد عنده خمراً فأشرب منها ،

« قال : فخرجت فجئته فلم أجده ، قال : فقلت لو أنى جئت الكعبة فطفت بها سبعًا أو سبعين ، قال : فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، وكان مصلاه بين الركنين : الركن الأسود والركن اليمانى ، قال : فقلت حين رأيته ، والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول ، قال : فقلت لو دنوت منه لأروعنّه ، فجئت من قبل الحِجْر ، فدخلت تحت ثيابها (الكعبة) فجعلت أمشى رويداً ، ورسول الله صلى الله

عليه وسلم قائم يصلى يقرأ القرآن ، حتى قمت فى قبلته مستقبله ، ما بينى وبينه إلا ثياب الكعبة .

« قال : فلما سمعت القرآن رقّ له قلبى ، فبكيت ودخلت فى الإسلام ، فلم أزل قائماً فى مكانى ذلك حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم انصرف ، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبى حسين ، وكانت طريقه ، حتى يجزع (يقطع) المسعى ، ثم يسلك بين دار عباس بن عبد المطلب ، وبين دار ابن أزهر ، ، ثم على دار الأخنس حتى يدخل بيته ،

وكان مسكنه صلى الله عليه وسلم فى الدار الرقطاء (التى فيها ألوان) ، قال عمر : فتبعته حتى إذا دخل دار عباس ودار ابن أزهر أدركته ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حسى عرفنى ، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى إنما تبعته لأوذيه ، فنهمنى (زجرنى) ثم قال : ما جاء بك يا بن الخطاب هذه الساعة ؟

« قال : قلت جئت لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله : فحمد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال: قد هداك الله يا عمر، ثم مسح صدرى ودعا لى بالثبات ، ثم انصرفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته .

رواية أخرى فى إسلام عمر رضى الله عنه :

وفى الروض الأنف رواية أخرى ، جاء فيها :

ذكر ابن سنجر قال : حدثنا أبو المغيرة قال بسنده : قال عمر بن الخطاب : خرجت أتعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أتعجّب من تأليف القرآن : قال : قلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، فقرأ : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ) قال : قلت : كاهن عَلِمَ ما فى نفسى ؛ فقال : (وَلَا بِقَوْلِ

كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) إلى آخر السورة ، قال : فوقع الإسلام فى قلبى كما وقع ، ويذكرون أن عمر قال شعرًا حين أسلم :

الحمد لله ذى المن الذى وجبت	له علينا أياد ماله غير
وقد بدأنا فكذبنا فقال لنا	صدق الحديث نبى عنده الخبر
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى	ربى عشية قالوا قد صبا عمر
وقد ندمت على ما كان من زلل	بظلمها حين تتلى عندها السور
لما دعت ربها ذا العرش جاهدة	والدمع من عينها عجلان يبتدر
أيقنت أن الذى تدعوه خالقها	فكاد تسبقنى من عبرة درر
فقلت أشهد أن الله خالقنا	وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
نبى صدق أتى بالحق من ثقة	وافى الأمانة ما فى عوده ضرر

أقول : ولعل هذه الأبيات ، كما يظهر منها ، تشير إلى رواية أخرى فى إسلامه رضى الله عنه غير الروايتين السابقتين ، وقد حدّث بها ابن إسحق ، وقال فيها :

وكان إسلام عمر فيما بلغنى ، أن أخته فاطمة بنت الخطاب وكانت عند سعيد ابن زيد ، وكانت أسلمت وأسلم زوجها سعيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله من بنى عدىّ قد أسلم ، وكان يستخفى بإسلامه خوفًا من قومه ، وكان خباب بن الأرت[1] يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القرآن ، فخرج عمر يومًا متوشحًا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطًا من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر الصديق ، وعلىّ بن أبى طالب ، فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم ، ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) خباب بن الأرت من السابقين الأولين فى الإسلام ، الذين صبروا على ما أوذوا ، وقد سأله أمير المؤمنين عمر يوماً عما لقى فى ذات الله ، فكشف ظهره ، فقال سيدنا عمر : مارأيت كاليوم ، فقال : ياأمير المؤمنين : لقد أوقدت لى النار فما أطفأها إلا شحمى .

بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد ياعمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابئ الذى فرّق أمر قريش ، وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله .

« فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك ياعمر ، أترى بنى عبدمناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً !! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتى ؟ قال ختنك (صهرك) وابن عمك سعيد بن زيد ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما ،

« قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه[1] ، وعندهما خباب بن الأرتّ معه صحيفة فيها (طه) يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حسّ عمر ، تغيّب خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ما هذه الهينمة (صوت كلام لايفهم) التى سمعت ؟ قالاله : ما سمعت شيئًا ، قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها ،

« فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى (رجع) وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفًا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد ، وكان عمر كاتباً ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافى ، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه فقالت له : يا أخى إنك نجس على شركك ، وإنه لايمسها إلا طاهر ، فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها ،

---

(١) زوج أخته .

فلما قرأ منها صدراً ، قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له : يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيّه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهمّ أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر ،

« فقال له عند ذلك عمر : فدلنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم ، فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا ، معه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف ، فقال حمزة ابن عبد المطلب فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إيذن له ، فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ بحجزته (موضع شد الإزار أى وسطه) أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه به جبذة شديدة وقال : ما جاء بك يابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ، فقال عمر : يا رسول الله جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله ، قال فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم » .

قال ابن إسحق :

« فتفرّق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم ، وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينتصفون بهما من عدوهم ، فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم » .

تعقيب :

أقول : وأنا أقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسلم عمر : « الله أكبر » فقد جاءه عمر المعروف فى مكة بشكيمته وشراسته وفتوته طائعاً مختاراً حين أشرقت عليه أنوار القرآن الكريم ، فامّحت بإشراقها ظلمات الجهالة ، وتحول عمر من الضد إلى الضد ، فلان بعد قسوة ، وصاحب بعد عداوة ، وتاب بعد ذنوب ، واستقام بعد عوج ، ورق بعد شدة ، وراق بعد كدورة ، وصار جيشاً فى جنب الله بعد أن كان جيشاً فى حزب الشيطان .

« الله أكبر » فقد تحول عمر بقدرة الله من حال إلى حال ، وسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء ، سبحانه من إله فعّال يقول للشىء كن فيكون .

« الله أكبر » فقد أيد الله رسوله صلى الله عليه وسلم بنصره وبالمؤمنين ، وقد سعد عمر بالإسلام ، وسعد الإسلام بعمر ، وقد كتب الله الإسلام لعمر قبل أن يكون من عمر عمل صالح ، فهو قضاؤه الذى قضاه بإيمان عمر ، وحقاً ما قال العارفون : ليس الإيمان ما يتزين به العبد من الأقوال والأفعال ولكنه جَرْىُ السعادة فى سوابق الأزل .

وإنى لا أقلل بذلك من قيمة العمل الصالح ، وكيف لى بذلك والعمل ولاء وامتثال للآمر به سبحانه (وَقُلِ اعْمَلوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ. وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) كما هو إقرار بفضل الله ورمز لشكره على ما أولاه : (اِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِى الشَّكُورُ) .

وقد سمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقول : اللهم اجعلنى من القليل فقال له : ما هذا الدعاء ؟ فقال الرجل : أردت قول الله تعالى : (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) ، فقال سيدنا عمر رضى الله عنه : كل الناس أعلم منك يا عمر !! ويرى القارئ الكريم من ذلك أن الرجل سأل ربه أن

يوفقه للعمل الصالح الذى يقربه، إلى الله عزوجل، فيكون من الشاكرين وهم قليل .

وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر (تتشقق) قدماه ، فقالت عائشة رضى الله عنها : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً .

ويقول الإمام القرطبى فى تفسيره : فظاهر القرآن والسنة أن يكون الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان ، فالشكر بالأفعال عمل الأركان ، والشكر بالأقوال عمل اللسان .

أقول : وهناك شكر بالجنان ، وهو أن يوقن العبد بقلبه أن كل نعمة جرت أو تجرى عليه فإنما هى من فضل الله تعالى وعطائه ، كما قال تعالى فى سورة النحل : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ) ، اللهم اجعلنا من الشاكرين بالأركان وباللسان وبالجنان يا رب العالمين .

اللهم يامقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك وأحينا عليه ، وأمتنا عليه ، وابعثنا عليه ، مع الآمنين من الفزع الأكبر يوم القيامة ، ووفقنا للعمل الصالح الذى يرضيك عنا برحمتك يا أرحم الراحمين ، وبجودك يا أجود الأجودين ، سبحانك لانحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، يا من قلت فى سورة الحجرات وقولك الحق :

(وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

ونعود لما كنا فيه :

الصحيفة الظالمة :

قال ابن إسحق :

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً

أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل الإسلام يفشو في القبائل– اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم ،

فلما فعلت ذلك قريش ، انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه في شعبه ، واجتمعوا إليه ، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثًا حتى جهدوا ، لا يصل إليهم شيء إلا سرًّا مستخفيًا به من أراد صلتهم من قريش، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو قومه ليلا ونهاراً، وسرًّا وجهاراً، منادياً بأمر الله لا يتقى فيه أحداً من الناس ،

وكانت قريش إنما تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم مُذَمَّما ثم يسبونه ، فكان صلى الله عليه وسلم يقول ، ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى قريش ، يسبون ويهجون مُذَمَّما وأنا محمد ، أقول ما أصبرك يا سيدي يا رسول الله ، وما أحلمك ، وما أرشدك .

الكفار يقترحون :

واعترض رسول الله وهو يطوف بالكعبة فيما بلغني الأسود بن عبد المطلب ، والوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف، والعاصي بن وائل السهمي ، وكانوا ذوي أسنان في قومهم ، فقالوا :

يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتَعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد ، كنا قد أخذنا بحظنا منه ،وإن كان مانعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم : (قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) .

وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى إذا دنوا من مكة ، بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا ، فلم يدخل أحد إلا بجوار أو مستخفيا ، فجميع من قدم عليه مكة من أصحابه من أرض الحبشة ٣٣ رجلا ، وكان ممن دخل منهم بجوار ، عثمان بن مظعون الجمحى ، دخل بجوار من الوليد بن المغيرة .

عثمان بن مظعون :

قال ابن إسحق يحكى موقفًا نبيلا رائعًا من مواقف عثمان بن مظعون رضى الله عنه : لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء ، وهو يغدو ويروح فى أمان من الوليد بن المغيرة ، قال : والله إن غدوى ورواحى آمناً بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى ، لنقص كبير فى نفسى ،

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس ، وفت ذمتك ، قد رددت إليك جوارك ، فقال له : يا بن أخى ؟ لعله آذاك أحد من قومى ، قال لا ، ولكنى أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره، قال : فانطلِقْ إلى المسجد ، فاردد علىّ جوارى علانية كما أجرتك علانية ،

قال : فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : هذا عثمان ، قد جاء يرد علىّ جوارى ، قال : صدق ، وقد وجدتُه وفيًّا كريم الجوار ، ولكنى قد أحببت ألا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره ، ثم انصرف عثمان ولبيد بن ربيعة فى مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان ، فقال لبيد :

* ألا كل شىء ما خلا اللهَ باطل *

قال عثمان : صدقت ،

قال لبيد :

* وكل نعيم لا محالة زائلُ *

قال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لايزول ، قال لبيد : معشر قريش ، والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟ فقال رجل من القوم : إن

هذا سفيه فى سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن فى نفسك من قوله ، فرد عليه عثمان حتى شرى (أى زاد) أمرهما ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضرها ، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان ، فقال : أما والله يا بن أخى إن كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت فى ذمة منيعة .

قال : يقول عثمان : بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله ، وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس ، فقال الوليد : هلم يا ابن أخى إن شئت فعد إلى جوارك ، فقال : لا .

أقول : فما أعظم هذه النفوس المؤمنة الأبية ، فقد اعتز عثمان بن مظعون بربه واحتمى فيه ، وكفى بالله وليًّا وكفى بالله نصيراً ، وكيف لايفعل وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه من سلفنا الصالح ، وذلك حين دفن إلى جواره فى البقيع ابنه الطفل سيدنا إبراهيم عليه السلام ، الذى كان له من مارية عليها السلام ، وقال يخاطب وليده : الْحَقْ بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون ، وكان عثمان رضى الله عنه أول من دفن فى البقيع من المهاجرين الكرام ، رضى الله عنهم وعن الأنصار أجمعين وعمن والاهم بإحسان إلى يوم الدين .

الصديق يرد الجوار :

وانظر إلى موقف الكفار من سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فقد كان له مسجد عند باب داره فى بنى جمح ، وكان رضى الله عنه إذا قرأ القرآن استبكى ، قالت السيدة عائشة فكان يقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته ، قالت : فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة — وكان قد أجاره — فقالوا له : يا بن الدغنة إنك لم تجر هذا الرجل لتؤذينا ، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى ، فنحن نتخوّف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم ، فأْتِه فمُرْه أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء ،

فمشى ابن الدغنة إليه فقال له : يا أبا بكر إنى لم أجرك لتؤذى قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه ، وتأذوْا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت . قال : أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟ قال : فاردد على جوارى ، قال : رددته عليك ، فقام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش ،

إن ابن أبى قحافة قد ردّ على جوارى ، فشأنكم بصاحبكم .

قال ابن إسحق فحدثونى أن سفيهًا من سفهاء قريش لقى أبا بكر وهو عامد إلى الكعبة ، فحثا على رأسه ترابًا ، فمر بأبى بكر الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل ، فقال له أبو بكر ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه ؟ قال : أنت فعلت ذلك بنفسك ، قال وهو يقول : أى رب ما أحلمك ، أى رب ما أحلمك ، أى رب ما أحلمك !

معجزة فى شأن الصحيفة الظالمة :

وقد مر عليك خبر الصحيفة الظالمة التى تعاهد فيه الكفار على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب وأودعوها الكعبة ، وإليك ما كان من شأنها بعد ذلك :

فقد جهد المسلمون من ضيق الحصار حتى أكلوا ورق الشجر ، ولقد قال سيدنا سعد بن أبى وقاص : جعت حتى إنى وطئت ذات ليلة على شىء رطب فوضعته فى فمى وبلعته ، وما أدرى ما هُو إلى الآن .

وقد كشف الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن الأرَضة أكلت الصحيفة الظالمة ، فقال لعمه أبى طالب : يا عم ، إن ربى الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها اسمًا هو لله إلا أثبتته فيها ، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان ، فقال : أربُّك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال : فوالله ما يدخل عليك أحد ، ثم خرج إلى قريش فقال : يا معشر قريش إن ابن أخى أخبرنى بكذا وكذا ، فهلم صحيفتكم ، فإن كان كما قال ابن أخى فانتهوا عن قطيعتنا ، وأنزلوا عما فيها ، وإن يكن كاذبًا دفعت إليكم ابن أخى ، فقال القوم : رضينا ، فتعاقدوا على ذلك ، ثم نظروا ، فإذا هى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزادهم ذلك شرًّا ،

ولكن قام رجال منهم فعملوا على نقض الصحيفة وقال قائلهم : يأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق تلك الصحيفة القاطعة الظالمة ، وقام المطعم بن عدى ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحق :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما يرى من قومه ، يبذل لهم النصيحة ، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه ؛ وجعلت قريش حين منعه الله منهم ، يحذرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس فى المسجد ، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه : خباب ، وعمار ، وأبو فكيهة ، وصهيب وأشباههم من المسلمين ، هزئت بهم قريش ، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق !! لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه ، وما خصهم الله به دوننا .

فأنزل الله تعالى فيهم فى سورة الأنعام : (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى ، كثيراً ما يجلس عند المروة إلى بيعة غلام نصرانى يقال له جبر ، عبد لبنى الحضرمى ، فكانوا يقولون : والله ما يُعَلِّمُ محمداً كثيراً مما يأتى به إلَّا جبر النصرانى ، فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم فى سورة النحل : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ[1] إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) .

---

(١) يلحدون أى يميلون إليه ، والإلحاد هو الميل عن الحق .

وكان العاصى بن وائل السهمى فيما بلغنى إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعوه ، فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ، فأنزل الله فى ذلك سورة الكوثر : (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ (١) هُوَ الْأَبْتَرُ) . والكوثر الخير الكثير ، وقيل نهر كبير فى الجنة ، مَنْ شَرِبَ منه لا يظمأ أبدًا .

موت السيدة خديجة وأبى طالب :

قال ابن إسحق :

« ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب ماتا فى عام واحد ، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بموت خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام وبموت عمه أبى طالب ، وكان له عضداً وحرزاً فى أمره ، ومَنْعَة وناصراً على قومه ، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين ، فلما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب .

مفاوضة الكفار :

قال ابن إسحق :

ولما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشًا ثقله ، قالت قريش بعضها لبعض إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا ، والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا .

قال : فمشوا إلى أبى طالب فكلموه ، وهم أشراف قومه : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، فى رجال من أشرافهم ، فقالوا : يا أبا طالب : إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ،

---

(١) شانئك : مبغضك .

فادعه فخذ له منا ، وخذ لنا منه ، ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا وديننا ، وندعه ودينه ، فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال :

يا بن أخى هؤلاء أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، قال : فقال أبو جهل : نعم ، وأبيك ، وعشر كلمات ، قال : تقولون : لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه ، قال فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا :

أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا ، إن أمرك لعجب ! قال : ثم قال بعضهم لبعض ، إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ، قال : ثم تفرقوا ، وأنزل الله فى سورة ص : (صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ۞ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۞ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۞ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۞ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۞ مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِى الْمِلَّةِ[1] الآخِرَةِ إِنْ هٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ) .

خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف :

قال ابن إسحق :

ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تنال منه فى حياته ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم من نصرته على الإسلام ،

(١) يعنون النصارى الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة .

والقيام معه على من خالفه من قومه ، فردوا عليه رداً قبيحاً ، فقال لهم : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنّى .

وقد أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، فتحركت له رحمهما وأرسلا له قطفاً من العنب مع غلام نصرانىّ لهما يقال له عدّاس

سعادة عدّاس :

فأقبل عدّاس بطبق فيه القطف ، ووضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له : كل ، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده قال : باسم الله ، ثم أكل ،

فنظر عدّاس فى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن أهل أى البلاد أنت يا عدّاس ومادينك ؟ قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نِينَوَى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ، فقال له عدّاس : ومايدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أخى ، كان نبيًّا وأنا نبى ، فأكب عدّاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قال : فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاءهما عدّاس قالا له : ويلك ياعدّاس ، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال يا سيدى ما فى الأرض شىء خير من هذا ، لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى ، قالا له : ويحك يا عدّاس ، لايصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه ، أقول : وقد أخلص عدّاس دينه لله ، فساق الله له السعادة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

تضرع نبوىّ :

وقد توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لربه بالشكوى ، ودعا دعاءه المشهور فقال وهو بالطائف :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوّتى ، وقلةَ حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهّمنى (أى يستقبلنى بوجه كريه) ؟ أم إلى عدو ملّكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضبٌ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

قال ابن إسحق :

ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ، ويخبرهم أنه نبىّ مرسل ويسألهم أن يصدّقوه ويمنعوه حتى يبين لهم ما بعثه الله به .

وقد فشا الإسلام بمكة فى قريش وفى القبائل كلها ، ثم أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كيف شاء الله سبحانه ، ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التى يصنع بها ما يريد ؛ وكان فى مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص لمن آمن بالرسالة وصدّق بها على يقين — أقول وستأتيك قصة الإسراء والمعراج كاملة فى باب لا حق من أبواب الكتاب إن شاء الله .

اللقاء الأول مع الأنصار :

قال ابن إسحق :

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه ، وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم ،

وإنجاز موعده له ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم .

فبينما هو عند العقبة (فى منى) لَقِيَ رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى !

« فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، قال : وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام ، أن يهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : إن نبيًّا مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلمون والله أنه للنبى الذى توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

« قال فلما قدموا المدينة إلى قومهم ، ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اللقاء الثانى بالأنصار :

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلاقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة الأولى ، فبايعوه على بيعة النساء[1] ، وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب .

أول سفير فى الإسلام :

قال ابن إسحق :

فلما انصرف عنه القوم ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصىّ ، وأمره أن يُقرئهم القرآن ويُعلمهم الإسلام ، ويفقهّهم فى الدين .

أقول ، فكان سيدنا مصعب بن عمير ، رضى الله عنه أول سفير فى الإسلام، وقد أسلم على يديه سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضى الله عنهما ، وهما يومئذ كبيرا بنى عبد الأشهل وتبعهما قومهما .

اللقاء الثالث بالأنصار :

ثم إن مصعب بن عمير رضى الله عنه رجع إلى مكة ، وخرج من خرج من مسلمى الأنصار إلى موسم الحج مع حجاج قومهم من أهل الشرك. فواعد الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة فى أوسط أيام التشريق . وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين .

يقول كعب بن مالك رضى الله عنه : فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى

---

(١) وهى المذكورة فى قوله تعالى فى سورة الممتحنة : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

رحالنا ، حتّى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا نتسلل تسلل القطا مستخفين (القطا طائر صغير) حتّى اجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتّى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال :

يامعشر الخزرج ، خزرجها وأوسها ، إن محمداً منّا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

بيعة العقبة :

قالوا : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، قال : فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ورغّب فى الإسلام ، ثم قال :

أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فأخذ البراء بن معرور رضى الله عنه بيده وقال : نعم ، والذى بعثك بالحق نبيًّا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا (أى نساءنا) فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (أى السلاح) ورثناها كابراً عن كابر .

قال : فاعترض القولَ والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الهيثم بن التَّيِّهان ، فقال : يا رسول الله : إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنّا قاطعوها — يعنى أهل مكة واليهود — فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم ، والهدْم الهدْم (أى ما هدمتم من الدماء هدمناه) أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

أقول : وجاء فى رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم قال : معاذ الله، المحيا محياكم والممات مماتكم ، ففرحوا وقالوا : هذه أيدينا فخذ لربك ولنفسك ما أحببت ، فبايعهم وقال : أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا كفلاء على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهؤلاء النقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى — يعنى المسلمين — قالوا : نعم .